عرضٌ عابِرٌ لِحياة فيلسوف الشّرق صدرِ المتألّهين و مذهبِه الفلسفيّ

الأستاذ السيد محمد الخامنه‌اى

ترجمة: الدكتور محمد غفرانى

الحلقة الثالثة

إذا ما اردنا سبر أغوار ميزاتٍ اُختصّ بها شيخنا البهائى العاملى (رضوان الله عليه) بحيث تمكننا مِن أن نتّخذها ذات أثرٍ مباشر فى تبلور شخصية الحكيم الملاّصدرا و الإفصاح عن مواهبه الكامنة فعلينا أن نقوم بالفحص و إمعان النظر فى عدّة خصائص تشكّل ابعاد شخصية هذا الفيلسوف الفذّ و العالم النحرير و هى تكاد أن تتمحصّ فى الخصائص التّالية:

ألاوُلى: خصيصة لم تتوفّر إلاّ لدى النزر اليسير من علماء عصره، فقد كان متضلّعاً و ملّماً بشتّى العلوم السائدة آنذاك إلماماً كاملاً وَإن كان هناك من العلماء من يتمتّع بهذه الخصيصة إلى حدٍّ ما، لا بصورة شاملةٍ مستوعبة مستوفاة كما نجدها لدى شيخنا المُلهم البهائىّ العاملى، و معذلك بما أنّ طبيعة البحث تتطلّب ازاحة الستّار عن تلك الحقيقة التى طالما نتطلّع إليها فى هذا المجال فنقول قلّما جاد الدهر بشخصيّة علميّة تضاهى شخصيّة هذا الانسان العظيم فى مستواه العلمى و احتوائه علوم عصره، نعم كانَ هناك من العلماء المعاصرين من له مكانته العلميّة الممتازة أيضاً مثل ميرداماد و هو بالحقّ يعدّ علاّمة دهره فكان يتمتّع بقسط وافر من علوم عصره المتداولة لدى العلماء و الفلاسفة و قتذاك.

فقد سجلّ تاريخ العلم على صفحاته الناصعة اسم شيخنا البهائى ضمن قائمة اسماء عدد من جهابذة العلماء و المفكّرين الّذين اكتنفت حياتهم هالة من الاساطير امثال فيثاغورس و هرمس، إنّ الشعب الايرانى العريق قد احتفظ فى ذاكرته سيرة هذا الانسان العبقرى العظيم يتناقلها الاجيال جيلاً بعد جيل بوصفها تراثاً تاريخيّاً للأمّة و اسطورةً يحوكها العجائب و الغرائب، فمن ابرز العجائب و الاعمال الخارقة المنسوبة إلى الشيخ البهائى تلك المنارة المتحركّة الّتى شيّدها بضاحية مدينة اصفهان، و لم يكشف احدٌ إلى الآن ـ فى الفنّ المعمارى ـ عن اسرار هذه المنارة و اسبابها الفنيّة المثيرة للأعجاب يُزكم الأنف و يذهل العقل، و من هناحريٌّ بنا أن نعدّ هذه الشخصيّة المرموقة التى تكاد تشابه شخصياتٍ اسطوريةً فى يونان و مصر ـ كما أشرنا آنفاً ـ أن نعدّها رغم تقشّفها و تزهدها فى المأكل و الملبس انساناً عظيماً قد احتلّ ركناً صغيراً من الأرض و جرماً ضئيلاً قد احتوى فيه الكون بأسره و الحقّ أنه مثالٌ كاملٌ لهذا البيت حيث يقول الشاعر:

أتزعم أنّك جرمٌ صغير و فيك انطوى العالم الاكبر

و كيف لنا أن نتعرّف على هذه الشخصيّة المرموقة بينما عجز التاريخ عن الولوج فى اغوارها و الخوض فى أبعادها فلم يفلح احدٌ فى الوصول إلى ذلك حتّى رجال عصره و ابناء زمانه فاذن لسنا مجازفين فى الحديث إن قلنا

كان شيخنا البهائی فريد دهره و وحيد عصره فی القرون المتعاقبة الأخيرة فلقب «العلاّمة» منح به طيلة حياته و هو اقلّ ما يوصف به انسان كهذا فی مجال التكريم و الإشادة و الإجلال، أی نعم قلّما يمكن أن نجد شخصاً يُطلق عَلَيه القابٌ و مسميّات كما سُمّی بها شيخنا الأجل بهاءالدّين العاملی ـ أسكنه الله فسيحَ جنّاته ـ.

و مما يجدد بالذّكر إنّ هذا اللّقب (العَلاّمَة) كان يطلق فی تاريخ حياة الحوزات العلميّة الاسلامية علی مَن حاز درجةً عاليةً من التبحّر و الاختصاص و سَبَقَ القصب من أقرانه و أترابه فی شتّی العلوم السّائدةِ آنذاك كالفقه و الأصول و التفسير و الحديث و الرّجال و الأدب و الصّرف و النحو و المعانی و البيان و البديع إلی جانب علم الكلام و الجدل و المناظرة و حتیٰ مهارتهم فی العلوم العقليّة البحتة كالمنطق و الفلسفة مهارةً فائقة، و كذلك فی العلوم الحديثة كالرّياضيّات و النّجوم و الهيئة و الكيمياء و الفيزيا و الطبّ و الصيدلة (علم العقاقير) و غيرها من العلوم، هذا. و إن كانت كلمة «العلاّمة» تعنی فی معنا اللغویّ «العَلمُ الغزير» و «المعَرفةُ التامّة» فی احد فروع العلم و لايشترط فيها اتقان شتّی العلوم[1].

وَ أينما اطلق هذا اللّقب فی مكانه المناسب و اللائق به، فهو مصداق حقيقیّ لكلّ من بلغ القِمّة فی اكتساب جميع علوم عصره نذكر علی سبيل المثال لاالحصر «العلاّمة الحِلّی حسن بن مطهّر» أمّا حكيمنا صدرالمتألّهين فهو برغم أنّه لم يصنّف ـ كما نعلم ـ إلاّ فی الحكمة و نزراً يسيراً فی المنطق و لم نقف إلی الآن علی أثرٍ له فی العلوم الأخری بيد أنّه يمكننا أن نرتضی له بيسر اطلاق لقب «العلاّمة» عليه لقباً يستأهل له و يستحقّه بكل ما تحمل الكلمة من معنی اذ أن حكيمنا الالهیّ فضلاً عن اخذ العلوم الشرعيّة مثل الفقه و الأصول و التفسير و الحديث و علم الرجّال (التّراجِم) قد حَضَر حضور التلميذ حلقة درس استاذ كبير جامع للعلوم: الرياضة و الهيئة و اسطرلاب و الهَندسة (نعنی الشيخ البهائیّ)، و لعلّ تضلّع حكيمنا ملاّ صدرا فی هذه العلوم كان سبباً فی أن تسمّی باسمه مدرسة خان شيراز الّتی شيدّت بارادته و تحت رعايته المعنويّة حيث مارس فيها التدّريس و التعليم فی أواخر حياته كما يقول بذلك الرحّالة «توماس هربرت عندما زار مدينة شيراز عام (١٠٣٦/ ه) و كانت مدرسة خان من اشهر المدارس الاسلاميّة الايرانية فی تلك الحقبة من التّاريخ، و فی هذه المدرسة فضلاً عن تدريس الفلسفة، كانت تدرس فيها مواد أخری من الرياضيّات و الكيمياء و علم الأحياء و الطبّ و النجّوم (علم الفلك).

إنّ الكاتب مير السيّد عليخان المعاصر لحكيمنا ملاصدرا يتحدّث عنه فی كتابه «سلافة العصر / ص ٤٤٩» و يقول ما هذا نصّه: «و منهم المولی صدرالدّين محمد بن ابراهيم الشيرازی المعروف بالملاّصدرا كان اعلم اهل زمانه بالحكمة متفننّاً بسائر الفنون، له تصانيف كثيرة عظيمة الشأن فی الحكمة و غيرها...»

إنّ عبارة «سائرالفنون» و خاصةً استخدام كلمة «الفنون» بدلاً من كلمة «العلوم» تشير إلی فنون و علوم غير العقلية و النقلية (المعقول و المنقول بالمعنی المصطلح لدی ارباب الفضل و الأدب) إذ لم تطلق إلی الآن كلمة «الفنون» كمصطلحٍ علميٍّ علی علوم التفسير و الحديث و الفقه و الأصول. و من المتأخرين ايضاً المرحوم الاستاذ الرفيعی القزوينی فی مقالة له نشرت فی (يادنامهٔ [ذكریٰ] ملاّصدرا، سال ١٣٤٠ / ه) يقول فيها: «و كمايَبدُومن شرحه علی الهداية لاثيرالدين الابهری الرّياضيّات انه كان فی الرياضيات أمهر من الهندسة و النجوم...».

والميزة الثانية الّتی تفرّد بها كلّ من الأستاذ و التلميذ و اشتهرا بها هی زهدهما فی الدّنيا و نأيهما بجانب عن الزهو و التّعاظم و تسنّم المناصب فقد كان الشيخ البهائی طفلاً ناشئاً غضّاً وَلّی الملك الصفویّ الشاه طهماسب أباه الفقيه البارع الشيخ عزّالدّين حسين بن عبدالصّمد العاملی منصب الزّعامة الدينيّة فی العاصمة (قزوين) و عنوانه شيخ الاسلام ثم جعله شيخاً للاسلام فی مدينتی مشهد (طوس السابقة) و هراة علی الترتيب، لما كان لهاتين المدينتين اهمية كبری من وجهة النظر السياسیّ حيث تحررتا آنذاك عن ايدی غزاة الأوزبك و غاراتهم علی حدود البلاد الشرقية.

و كان منصب شيخ الاسلام (مفتی الدّيار) منصباً دينيّاً رفيعاً فی الأوساط الاجتماعية يماثله فی عصرنا الحاضر منصب إمامة الجمعة، كماكان شيخ الاسلام يمثلّ السلطة الملكية فی المدينة الّتی استمرّ به المقام فيها و هو يقوم بالبتّ فی قضايا الناس و حلّ الخلافات بينهم و القيام بمهام الوعظ و الإرشاد و ما إلی ذلك من الأمور الحِسبيَّة الّتی عُهِدَت إلَيه كحاكم الشرع فی المدينة و عندما أُعلن مذهب الإماميّة مذهباً رسميّاً للبلاد فبقی منصب شيخ الاسلام الّذی كان تقليداً للنظام الدينیّ العثمانیّ علی ما كان

١- و ينبغی هنا أن نهيب بأهل القلم و الكتّاب و اصحاب الصحّف بالكفّ عن اطلاق هذه التسمية علی كلّ صاحب فضل و علم، كيلا يؤدّی ذلك إلیٰ افراغ المسمّيات من مضامينها و الألقاب من مدلولاتها بحيث ينتهی بنا الأمر إلی الحطّ من مكانة رجالنا العظام فی التاريخ.

عليه، و استمرّ و اخذ فى التوسّع كجهاز دينىّ ضرورىّ يقوم بدوره الاساسى فى معالجة مشاكل حياة الناس، إذلمّا يتوفّر حينذاك العدد الكافى من الفقهاء و رجال الدين يغطّى حاجات المجتمع فيما يتعلّق بشؤون القضايا الدينيّة لكافّة افراد الشّعب.

و من هذا المنطلق بادر الملوك الصفويّة إلى إرساء دعائم كرسىّ منصب «شيخ الاسلام» و تدشينه فى ارجاء البلاد فعينُّوا لكل مدينة من المدن الكبرى فقيهاً بعنوان «شيخ الاسلام» و فى ذلك استعانت الحكومة بفقهاء و علماء جبل عامل فى لبنان من الشيعة الاماميّة الذين ذاعت صيتهم و نالوا شهرة واسعةفى الاوساط العلمية والدينية فى البلاد مما استدعى ذلك توجيه الدعوة من الملك الصفوى إلى والد الشيخ البهائى لمغادرة لبنان نازحاً إلى ايران و لعلّ كان ذلك بسبب التماس الشّيخ المنشار شيخ الاسلام فى مدينة اصفهان فى وقته و حما الشيخ البهائى اى أبو زوجته فيما بعد.

❑ إنّ تاريخ حياة الملوك و الأباطرة على مرّ الزّمن تنبىءُ عن مدى سخافتهم و تفكرهم الشبيانىّ إزاء هذا العالم بينما نجد مالدى دعاة الحق من فكر صائب رأى حازم يَتبلورُانّ فى حياتهم الكريمة المصطبغة بصبغة القناعة و التقشّف مما يوحى إليه تفكر هم العرفانى العميق نحو الحياة و مظاهرها المغرية الزّائفة الفانية (و ما عندالله باقٍ).

أمّا الشيخ البهائى فبرغم عدم بلوغه سن الرّشد يؤهلّه للانفراد بحياة مستقلة نراه يؤثر حياة التقشّف فى رحاب الحوزة العلميّة باصفهان على المعيشة تحت رعاية ابيه، و فى رغد كنفه بهراة، فأخذ يواصل الدراسة و يكرّس جهوده على كسب الفضائل و النهل من معين العلم العذب و حينما فُرض عليه منصب شيخ الإسلام، و اضطرّ مجبراً إلى قبوله و إلىٰ مواكبة الشاه عباس الصفوى فى اسفاره و تجوّلاته بين مقاطعات البلاد و محافظاتها، و لكنه نراه سرعان مايلبىّجبلتّه الزاهدة، و يملى عليه ضميره الواعى فيبحث عن المخرج و الابتعاد عن تلك المراكز الدنيويّة ايماستحت له الفرصة، فيتّخذ زيارة بيت الله الحرام حجة و ذريعةً للتخلص من المهام الملقاة على عاتقه فيقوم بالتجوّل فى صقاع البلدان الاسلامية تجوّلاً روحيّاً علّه يدخّر لنفسه زاداً معنويّاً يكسبه مقاماً محموداً، و هو فى زىّ الدروايش و السّياح، و قد قيل عنه: إنّه قضى ثلاثين عاماً من عمره فى التجوال و التّرحال (السّير و السلوك).

و هنا يجب علينا أن لا نخلط اوراق التاريخ منعاً من تزييف الحقيقة إذا ما اعتبرنا الشيخ البهائى من زمرة العاكفين فى اروقة البلاط الملكى و المقتاتين على سماطه بل إنّنالم نقف على مصدر تاريخىّ او كتابٍ من كتب الرّحالة و السّياح الأجانب الّذين زاروا ايران ما يشير إلى ملازمة الشيخ البهائى البلاط الصفوى و الحضور فى صفّ افراد بطانة الملك و حاشيته، كما لم يرد اسمه فى اىّ كتابٍ من كتب الأحداث الّتى وقعت تلك الحقبة من تاريخ البلاد، و ان لم يغفلوه فى معرض الحديث عن رجال ذلك العصر و علمائه حيث اشادوا به و أثنو عليه ثناءً جميلاً مما يدلّ على مدى شهرته و علوّ شأنه و سموّ مكانته المرموقة و طول باعه فى العلوم و الآداب.

و إن دلّ ذلك كلّه على شئٍ إنّما يدلّ على أنّ الشيخ البهائىّ و ميرداماد و غير هما من العلماء المبرزّين لم يكونوا ـ كما ذكرنا آنفاً ـ ممّن قبعوا فى أبهاء البلاط و اعتكفوا فى أروقته متزلفين تملّقاً و تحذلقاً للملوك و رجال الحكومة و افراد الحاشية، كما لم يضعوا انفسهم فى ما يتعلّق بشؤون البلاط و مراسيمه هدراً و ضياعاً.

فصلتهم بالبلاط و مسايرتهم مع حياة الملوك و السلاطين الصفوية كانت لاسباب، منها:

أوّلاً: الحاجّة الماسّة التى كانت تحسّ بها الحكومة الشيعيّة الاماميّة الفتيّة للاستعانة بهؤك العلماء و الفقهاء لم يتأت منهم إلاّ القيام بالأمور الشرعيّة و الشؤون الدينيّة إلى جانب مزاولة التدريس فى المدارس و معالجة القضايا الّتى ترتبط بالتربية و التعليم للجيل الصاعد من الأمّة و حياتها الاجتماعيّة، و خاصّةً للتحدّى و المنافسة مع نظام الدّولة فى وقتها.

ثانياً: الحاجة أحياناً إلى الاطلاع عن آراء رجال الدين و كبار المشايخ الأفذاذ و عن وجهة نظرهم حول تكهّن منجّم البلاط و تفاؤله و قراءة الطايع أو مايرتبط بتحليل مايفسرّه مفسر و الأحلام، أو ما يتعلّق بمتابعة مخطّطات المهندسين و مشاريع المعمارين فى تشييد ابنية المساجد و المدارس و مدّ الجسور و شق الطرف و تعبيدها و بناء أربطة القوافل و السرايات و الخانات أولإلقاء الوعظ على من اتخذّوا البلاط حانةً للصهباء و مأوًى للسهرات و ملهىً للخلوات مستغرقين بالملّذات و المناهى و المنكرات أملاً فى أن تحلّ مطامح معنوية محل الاهواء النفسيّة و مشتهياتها أولأجل الاستشارة معهم فى حلّ مسائل طارئة

يوحى اليهاما فى قلوبهم من النوّايا و المقاصد.

إنّ شيخنا البهائىّ حتى أيامّ تسلّمه مقاليد منصب شيخ الإسلام و اتخّاذه العاصمة مقرّاً لزعامته الدينيّة كان ليّن الجانب متمتّعاً بروح متواضعة و نفس زهيدة، يعيش بين الناس ببساطة و يجالس الدروايش و يعاشر الزّهاد و يصاحب الفقراء و يتردّد فى المرافق العامّة حتّى فى الخانقاهات و اربطة الصوفيّة و زواياهم و مع كونه ملاذاً و ملجأً للمحتاجين و البؤساء و مأوًى و موئلاً للمساكين و الفقراء و مرجعاً لحل مشاكل الناس و البتّ فى دعاويهم و فصم مخاصماتهم بيد أنّ هذا الشيخ العارف المتنسّك يبدو و كأنّه انسان يعيش بمعزل عن سائر النّاس و عن حياتهم المألوفة، فكان يترصّد دوماً لإنتهاز الفرص الطارئة و اغتنام الظروف المواتية لينقذ نفسه عن ضوضاء المجتمع و يشدّ الرّحال إلى المدن و البلدان الأخرى سالكاً و محلّقاً فى اجواء الأنفس و السيّر فى الآفاق.

و المتبادر للباحث أنّ من دواعى تهرّب شيخنا البهائىّ من مدينة الاصفهان و تحيّن الفرص لمغادرة العاصمة متذرّعاً التجوّل حول العالم هى الحالة الاخلاقيّة المتردّية الرّاهنة فى بلاط الملك الشاه عباس الكبير حيث يجرى فيه اللهوّ و المنكر و الخلاعة و تقام فيه سهرات يشترك فيها الملك و بطانته و يشربون الخمور و يتوغلّون فى الملّذات و يستهترون بالقيم الانسانية و يستخفّون بالمُثُل الأخلاقية و كان الملك نفسه يقضى شطراً كبيراً من اوقاته بين احضان الجوارى الحسان يحتسى الصهباء و يكتسى الكأس حتى الثمالة و هكذا ايتجاسرو يقترف المناهى و يحرص كلّ الحرص على تكديس اروقة البلاط بالعازفين و العازفات و المغنّيات و القينات من النّساء جرجيات الأصل او الشركسّيات و عنده الجشّع فى السطو على اعراض الآخرين و تصرف ما فى ايديهم من الحسناوات الجميلات و هو يدّعى بأنّه كلبٌ لروضة علىٍّ و خادمٌ لدين محمد ﷺ و عبد من عبيد سلطان الولاية علىّ عليه السلام، و قد بلغ فى الشقاوة و سفك الدّماء و الفتك بالمناوئين حدّاً لم يسلم أحدٌ منه حتّى أقربائه و أصدقائه المقربّين فما أن ابتدر من هؤلاء تصرّفٌ لايروق للملك فى الحال حتّى ينكل و يغدر به دون اكتراثٍ و تمهلّ و يقتله شرقتلةٍ و بصورة بشعة، بل إنّ قلبه كان لايرقّ حتّى لأبنائه فَلَذات الأكباد فيسمل بعضهم و يلق بالبعض الآخر فى غياهب السجون أو يكون مصيره الإبادة و الهلاك.

و الحالة هذه و الحكومة تمكنّت من استتاب الأمن و الاستقلال و العمران فى البلاد مسجّلة صفحة ناصعة فى تاريخ ايران و لكنها ارست دعائم حكمها ـ كما كان دأب الملوك فى الأزمنة الغابرة الّتى مرّت بهذا البلد ـ على الفردّية و الاستبداد بالحكم و على العسف و الجور و الاستهتار بالقانون و عدم التريّث به و الانغماس فى الفساد و الشهوات و التحلل الأخلاقى و ... فبلاط الملك الشاه عباس الصفوىّ ـ و إن فسح المجال فيه للعلماء و الفقهاء و الحكماء و الشعراء و الأدباء ـ كان مقراً أساسّياً يحتض فى جنباته المطربين و القينات و المغنّيات من العاهرات و الفاجرات اللاّتى كنّ يفرشن سماط الرقص و الفساد و بساط الشهوة و اللهوّ بجانب موائد الخمور و المسكرات و المنكرات لاتُطوى فيحتسى عليها المدام كالماء فى الكئوس و يكتسى دماء الأبرياء كالصهباء فى الأكواب.[2]

و الحالة هذه نرى هناك كبار من رجال الدّين كالشيخ البهائىّ و ميرداماد و الفيض و المجلسى و امثالهم ـ و قد زعم البعض خطأً أنّهم كانوا فى خدمة السلاطين ـ يستغلّون واجبهم الشّكلىّ بمرافقة الملوك و الحضور فى الاجتماعات و المراسيم حيث كانوا يقومون بالذّود عن الاستقلال الثقافى للبلاد و منع نفوذ ثقافة الحكّام الأتراك المعتدين من جانب و مدّيدالعون و المساعدة لضعفاء المجتمع و مساكينه من جانب آخر و كانوا كذلك درعاً و اقياً لجماهير الشعب الايرانى المسلم عن ظلم فرقة القزلباش الصوفيّه و سيوفهم الشاهرة على الرّقاب كما كانوا فى الوقت

□ و مما سلف يتبيّن لبباحث انّ الانهيار الخلقى الذى كان يسود فناء البلاط الملكى يعتبر عاملاً اساسيّاً يدفع بالشيخ البهائى إلى الابتعاد عن جوّ مراكز السلطة و القيام السفر و التجّوال داخل القطر او خارجه تنفيساً عمّا كان يعانيه من سؤ الأحوال.

۲- و إن لم تشر الكتب التاريخيّة الّتى دوّنت فى زمن هؤلاء الملوك إلى تلك الحقائق إلاّ من بعيد و بصورة رمزية غير مباشرة و اغفلت الجانب الأكبر منها، و لكن نجد اسفار الرّحالة و السّيّاح الغربيّين امثال دلاوالى الايطالىّ و غارسية الاسبانى و تاورنيه و شاردن الفرنسويّين و شرلى الانجليزى و غيرهم قد تناولت هذه الحقائق بشىء من الصّراحة اكثر مما جاء فى المصادر التاريخية الأخرى.

نفسه يمهّدون السُبل لنشر العلم و تطور الثقافة و إعداد الطلبة و العلماء لخدمة الاسلام و نحن نعلم أن غزوالتتر لبلادنا و الذى كان يهدّد محو متعالم ثقافتنا يكاد أن يقوّض اركان العلم ويبيد كيان البلاد بأسره لولاً مالدى الخواجة نصيرالدين الطوسى من حكمة رشيدة واردة قوّية و فكر ثاقب و رأى سديدٍ و همّة رفيعة من شأنها أن تجعله يلعب بالبيض و الحجر فلولا ذلك كلّه لانكسرت البيضة و تهشّمت و قضى على البلاد قضاءً تامّاً و ليس من المستبعد أنّ نفسيّة الشيخ البهائى المتقدّة و مشورته النافذة كانتا من البواعث الّتى دفعت بالملك الشاه عباس إلى القيام بانجاز اعمال خيريّة و خدمات انسانيّة نافعة، ولَلأسف الشديد إنّ هذه الخدمات الجليلة ـ التائهة فى ثنايا صفحات التاريخ و المتوارية خلف لثامه ـ تنسب تعسّفاً إلى أولئك الجبابرة المتغطرسين المتعجرفين المتطاولين.

و مع كلّ هذا و ما يشاكله فإنّ نفسيّة الشيخ الزكيّة الأبيّة التوّاقة للحرّية و جبلّته السماويّة الشّفافة كانتاتأ بيان عن احتمال تلك الفجائع و الاحوال البذئية والمشينة، و لذلك نراه بأية مناسبة و خاصّة ذريعة زيارة بيت الحرام يبحث عن مخرج يبعده عن ملابسة المناصب الزائفة المتغيّرة لامحالة، فيقوم بشدّالرّحال إلى المناطق النائية عن العاصمة ليتمتع بخلوة الوحدة و يسرح فى ميدان الفكر الرحّب الواسع و يستأنس بمجالسة الاحباب من ذوى المعرفة و يصاحب المقرّبين المجذوبين و غبطة بعده عن المحجوبين المبعدين من اهل الهوى و السهّر باهزل و النّدام و مداعبة اللّواعب، و ملاعبة الكواعب.

و كانت حصيلة تلك الزهادة و الحياة الروحيّة آثاراً قيّمة تركها للأجيال الصاعدة المتعاقبة فى ميدان العلم و المعرفة ينهلون منها و يروّون بها غليلهم و هى لاتزال بزاساً منيراً و نجماً ساطعاً فى سماء العلم و المعرفة باجوائها الفسيحة المترامية. و إذا ما تعمقّنا النّظر فى حياة حكيمنا صدرالمتألّهين ـ تلميذه النابه الحصيف ـ لوجدناه يحذو حذو استاذه و يسير على نفس منهجه و رويّته فى الحياة. و لذلك اننّا لانستبعد أن يكون الحافز إلى رحيله و مغادرته مدينة اصفهان الزاهرة بعد تفرغّه فى العلوم و بلوغه مدارج الكمال النفسيّة و صعوده قمة الفضائل الروحيّة و وصوله إلى ذروة المراتب المعنويّة أن يكون الحافز ـ كما أشرنا إليه من غير مرّة ـ هو الابتعادعن البلاط الّذى تفشّى فيه الفساد بما تحمل الكلمة من معنىً ليحتنب عن مشاهدة مايرتكبه حاشية الملك و يقترفه بطانته من أعمال مخزيةٍ مهينةٍ تلطّخت جبين التّاريخ، و لعلّ نصائح الشيخ البهائى و إرشاداته الغرّاء لتلميذه الشابّ كان لها دورٌ فى الدّفع به إلى النزوح من مدينة اصفهان إلى منطقة نائية استفرّبها المقام طوعاً أوكرُهاً ـ هكذا كان مصيره المحتوم بماقدّر الله له سُبحانَه و تعالى ـ.

و كما يُحدّثنا التاريخ انّ حكيمنا البارع صدرالمتألّهين لم ينل الجاه و الثّروة عن كلالة بل ورثهما عن والده الّذى كان واحداً من رجال العصر الصفوى و هو يمارس منصباً سامياً فى حكومة مقاطعة فارس و ينقادله والى شيراز مثل الامير محمد خدا بنده، فكان بامكان نجله الوحيد أن يتمتّع بامكانياتٍ ماديّةٍ هائلةٍ و يعيش فى ترفٍ و بزخٍ كماكان من السهّل عليه أن فى سلك رجال بلاط الملك الشّاه عباس الكبير و يتقرّب من خلفائه و ندمائه ذلك بوصاية استاذيه البهائى و ميرداماد و تأييدهما و تعضيدهماله لدى الملك ليتّخذ مكاناً بارزاً و مرموقاً فى جهاز الحكومة و ينال من السيادة و الرّفعة نصيباً وافراً، كلُّ ذلك شريطة أن يغضّ الطرّف عمّا يجرى فى داخل البلاط الملكىّ من الفواحش و الشّنائع الّتى لايرضاها النفّس الأبيّة.

و مع ذلك كله نجد حكيمنا البارع الفنىّ يسأم تلك المظاهر المغرية فهو يتنحىّ عن ذاك السرّاب، و تلك

□ انّ و جميع الحركات و السّكنات الصادرة عن البشر ماهى إلاّ و ليدة نظرتهم و منطقهم النظرى و الفلسفى إتجاه الحياة و إتجاه خالق الكون و يوم الميعاد و الحشر.

الخاوية مترنّماً بما انشده الشيخ البهائى حيث يقول:

از سَمور و حرير بيزارم باز ميل قـلندرى دارم

□ **التّرجمة:**

سئِمتُ السَّمورَ و الحَريَر و قلبى يَتوقُ إلىٰ التسكّـع و الخلاعةِ (و الخـلاعة هـى أسمـى درجـات العـرفان لدى الصوفيّة).

تكيه بر بسـتر مـنقّش بس

بر تنم نقش بورياست هوس

□ **التّرجمة:**

سَئمتُ الفراشَ الَوثيرَ ولى رغبةٌ فى تَو سُّد الحَصير.

دلم از قيل و قال گشته مـلول

أى خوشا خرقه و خوشا كشكول

□ **التّرجمة:**

سئِمتُ القيلَ و القالَ و الجدالَ و النِّقاش و يٰا مرحباً بالخرقة و المرقّع و يٰا حبّذا بالجُراب و الوعاء الفارغ (و الّذى يُسمّى بالفارسية كشكول و هو يطلق فى الأدب على المـوُسوعة أيضاً مثل كشكوُل الشيخ البهائى)

خاك بر فرق اعـتبار كـنم

خنده بر وضع روزگار كنم[٣]

□ **التّرجمة:**

فأحثو التّراب على تلك المكـانة و المـنزلة و أسـخر مـن مجريات الدّهر و تزاويقه الزائفة.

والميزة الثالثة: هى أن شيخنا البهائىّ إلى جـانب تزهده و تقشفّه فى الحياة كان كأحد نوادر رجال الدّين و أصحاب الطريقة على دراية تامّة و معرفة واسعةٍ بكـيفية الرّياضة النفسيّة الشرعيّة فقد جاء فى سيرته أنّـه قـضى قسطاً كبيراً من حياته فى ممارسة عدّة اربعينّيات بالصّوم و التهجّد و الصّمتوالاقلال من الطعام و الانعزال عن السماع و حلقات الذكّر الجماعى و هذه الحالة تسمى لدى الصوفيّة (چلّه نشيتى = المقات الأربعينىّ) يعتكف السالك اربـعين يوماً مشتغلاً بالذكر و منزوياً عن النّاس طُرّاً و ذلك توطئة لتزكية النفس و بلوغها إلى مراحل الكشف و الشهود و هذا النوع من الرّياضة الّتى تستمّر اربعين يوماً أو أيامّاً أُخـر حسب مـا يـترتّب عـليه نـوعيّة الرّيـاضة و مـايتطلبّها عناصرها و مقوّماتها الذاتيّة، لهـذا النـوع مـن الرّيـاضة حكاية طويلة و إنّ هذه الأعمال و العبادات الّتى اصطلحت لدى اهل الطريقة و اصحاب السلوك بالرّياضة الشرعيّة الّتى تلعب دوراً بنّاءً فى تشييد مـعالم السـلوك و آدابـه و كمايبدو من سيرة الانبياء العظام و الأئمّة الكـرام عـليهم افضل الصّلوة و ازكـىالسّـلام أنّهـم لم يـناهضوا تـعاليم

> □ وكـــما يــحدّثنا التــاريخ انّ حكــيمنا البــارع صدرالمتألهين لم ينل الجاه والثروة عن كـلالة بـل ورثهما عن والده الذى كان واحداً مـن رجـال العـصر الصفوى و هويُمارس منصباً سامياً فى حكومة مقاطعة فارس و ينقاد له والى شيراز

التصوّف و العرفان بل يمكن القول بأنّها كانت فى اغلبيتها مستوحاة من تعاليم انفسهم عليهم السّلام و أمّا من وجهة النظر التاريخى فترجع أُصولها إلىٰ ازمنةٍ غابرة و تـستمدّ مقوماّتها من حكمة الفرس القديمة قبل الاسـلام، اذكـان الموحّدون منهم يزاولونها فى طـقوسهم و تـعاليم الحـكمة النظريّة باعتبارها مدخلاً للحكمة العلميّة.

و قد انتقلت هذه الطريقة إلى يونان قـبل المـيلاد بسـتة أو سـبعة قـرون تـقريباً و ذلك بـوسيلة الطـلاّب اليونانيينّ امثال فيثاغورس و غيره، ثمّ تبلورت و ازدهرت فيما بعد فى مدرسة بـلوتين الاسكـندرانى ثم اسـتمرت و تجسّدت فى طريقة حـكمة الاشراق السّهـرورديّة، و مـن الغريب أنّنا نشاهد مواصلة سير هذه الطـريقة فى عـصر الشيخ البهائى و ميرداماد إلى أن تنتهى بصدرالمتألّهين و من

٣- راجع ديوان الشيخ البهائىّ بالفارسيّة.

□ فقد سجلّ تاريخ العالم على صفحاته الناصعة اسم شيخنا البهائى ضمن قائمة اسماء عدد من جهابذة العلماء و المفكّرين الّذين اكتنفت حياتهم هالة من الاساطير

جاء بعده من تلاميذه بصورة حليّة و هذا النوع من الرّياضة النفسيّة قائمة و لاتزال، «ما حرّكت الشّمال النخّل الدّقيق و ما تحرّكت الشّمال النخّل الدقيق».

و الميزة الرّابعة: هى ميزةٌ تبدو بوضوح من اوّل وهلة يلقى النظّر فى حياة الشيخ البهائى و تلميذه مُلاّصدرا و مكانتهما العلميّة و درايتهما العرفانية الّتى تتمحّص فى ميزتين أُخريتين و هما الزّهد و الرّياضته النفسانيّةوانّ جميع الحركات و السّكنات الصادرة عن البشر ماهى إلاّ وليدة نظرتهم و منطقهم النظرى و الفلسفى إتجاه الحياة و إتجاه خالق الكون و يوم الميعاد و الحشر.

إنّ تاريخ حياة الملوك و الأباطرة و الجبابرة فى غابرالزّمن يعبر بجلاءٍ عن تفكرهم الحيوانى و منطقهم الصبيانىّ و نظرة البلهاء نحو الكون و الحياة فهم لايرون أبعد مما تحت اقدامهم ذلك لو فرضنا أن درايتهم قد تجاوز اطراف أنوفهم و علىٰ نقيض ذلك فانّ اعمال رجال الحق و افعالهم و تصرفاتهم ذات طابع الزّهد و التقشّف و إعراضهم عن المال والمنال و عزوفهم عن الجاه و المقام يدل كلّ ذلك على مدى حصافتهم و حزمهم و بعد نظرهم فبلغوا درجة الوعى والإدراك بنظرتهم الفاحصة الثّاقبة نحو فناء الحياة و زوال الجاه فأوصدوا نوافذ قلوبهم إزاء مباهج الدّنيا، و لم تتعلّق افئدتهم بحبالها و هرعوا بكلّ ما يملكون من القوّة نحو ما هو اعظيم و أبق من لذات هذا العالم الفانى فنتجت عن هذه النظرة العرفانية الثاقبة تلك الاعمال و الأفعال الزّاهدة و التفاعلات الروحيّة الصوفيّة و ربّما يصعب على المنتقدين إثبات هذه الميزة بمثل هذا الاستدلال الّذى يشبه البرهان اللّمى فليس من السهل عليهم أن يتوصلوا إلىٰ ذلك إذ لا يمكن لنا اطلاق العرفان النظرىّ على أثر من آثار شيخنا البهائى الّتى تبلغ زهاء تسعين اثراً بين كتاب و رسالةٍ، و ربّما يخوّل ذلك للمنتقدين و ذوى النظرة الضيقة أن يطعنوا فى هذا الرّأى و يخدِشوفيه، فيعدّون الشيخ البهائىّ رجلاً فقيها و مفسّراً و اصوليّاً و نحويّاً و بلاغيّاً إلىٰ جانب المامه بالرياضة و الهندسة و النّجوم و الدّراية بالعلوم الغريبة كالجفر و الرّمل و الطلاسم و الشعوذة، و لم تحسبوهُ عارفاً من العرفاء كصاحب وجهة النظر و الرأى فى العرفان فيستبعدون كونه رجلاً عارفاً و كيف لم يترك لنا اثراً واحداً من بين آثاره الغزيرة فى العرفان. و لكننا بما نعرفه من خصاله و نزعته و ميوله فى البحث و المعرفة و انتهاز الفرص لاكتساب العلوم و المعارف و القيام بالتجوّل و الأسفار و الالتقاء بأهل النظر و خاصةً المصاحبة و الاستيناس بأصحاب و آثار مدرسة شيراز الفكريّة و خاصّةً آثار الشيخ الدوّانى و تلاميذه، و فوق كلّ ذلك ماكان له من طبع صوفىّ و ما يصدر منه من اعمالٍ تنبئ عن زهادة مرتكبها كلاهما ينبئان عن نزعته العرفانية الساميّة العميقة، فمن المستحيل كمايبدو أن لايكون الشيخ البهائى لم يقرأ كتب هؤلاء العرفاء أولم يتتلمذ عليهم فى ايران أو فى آسيا الصغرى حين تجواله و سفراته خارج القطركما لايستبعدان يكون شيخناالبهائى قد درّس العرفان النظرى خفيةً لبعض الخصيصيّن من تلاميذه كماكان دأب بعض ذوى الأفذاذ من المعاصرين كاستاذنا الرّاحل العلاّمة الطباطبائىّ فقد كان يدّرس العرفان على هذا الغرار لبعض تلاميذه من المقربين مستنكفاً عن افشائه و اعلانه تدريسه كسائر الدروس التقليديّة و المتعارفة فى الحوزة.[۴]

أمّا الميزة الخامسة و الخصيصة الأخيرة لدى شيخنا البهائى فهى طبعه الأدبىّ اللطيف و شاعريته الحاسسة الوقّادة، فقد برزت على صفحات تاريخ الأدب القديم فى العالم اسماء شعراء عديدين حيث نظموا و انشدوا أشعاراً هى حصيلة فيضان روح الشاعر الجيّاشة و احاسيسه المرهفة و طبعه الشفّاف و فطرته الشاعريّة الملهمة بيد أنّ ذلك الإحساس المرهف و الرّوح الفيّاضة ليست على و تيرة واحدةٍ لدى الجميع، فنرى هناك تبايناً و فارقاً فى اشعارهم شفافيّة و رقّة فالشعر بذاته لعاجز عن كشف و ابراز مايكنّ قريحة صاحبه من العزوبة و الرّقة و يجوش فى طبعه من الإحساس المرهف ممايجعلنا أن نفحص عن العناصر و الأجزاء الّتى تعبّر عن رهافة الإحساس و رقّة المشاعر عند ما نلقى النظرة على أشعار ذوى الحسّ المرهف الملكوتىّ سواء فى انشاداتهم الشعريّة أو فى عباراتهم المنثورة و حتّى فى اعمالهم و تصرفاتهم العاديّة. □

۴- كان المرحوم العلامة الطباطبائى (قدس سرّهُ) يدرّس نصوص بعض الكتب العرفانية و الفلسفيّة و يلقى محاضرات على بعض الخواصّ ممّن يحضر عليه فى حلقات دروسه فى الحوزة، و ممايلاحظ أنّ شيخنا البهائى كان يلقى عنايةً و اهتماماً بالعرفان و العرفاء و حتّى يبدى رغبةً فى الإنتماء إلى أنصار مدرسة الإشراق و منهم جلال الدّين الدوّانى بين فينةٍ و أخرى كمايبدو ذلك فى كتابيه «الكشكُول و المخلاة».